نقد المكونات الاخلاقية للتراث الايرانى المؤثرة فى الاخلاق العربية من منظور عابد الجابرى

محمد بنبردى[1]

السيد محمد طباطبايى[2]

ملخص:

تم بحمد الله الانتهاء من دراسة أراء الجابرى فى المكونات الاخلاقية للتراث الفارسى، و ذلک باستعراض أولا المكونات الخمس، و تحديد مفهوم كل مكون من المكونات. ثم الانتقال الى استعراض منظور الجابرى لكل مكون، و الادعاءات الواردة عنه. ليتم الانتهاء بعد ذلک الى نقد كافة الادعاءات، و ذلک اولا بتحليل المكوناتكما أوردها الجابرى فى كتابه العقل الاخلاقى العربى، ثم تحديد جذورها التاريخية الحقيقية، و عدم نسبتها الى الحضارة الفارسية باعتماد كتب ادبية محدودة –كما ذهب الجابرى من قبل– و ثانيا بتفصيل و بيان الاخلاق فى كل من الحضارة العربية و الفارسية، و توضيح العلاقة الحقيقية بين الحضارتين، و استحضار انجازات الحضارة الفارسية و اسهاماتها فى الحضارة العربية . و بالتالى نفى الادعاء العام للجابرى فى ان الفرس اساس انحطاط العرب، و هى فرضية اعتباطية، لابد من اعتماد اكثر من منهج لوضعها قبل معالجتها، و ليس الانطلاق من الكتب الادبية المحدودة دون الرجوع الى المنهج التاريخى و باقى المناهج العلمية . ولو سلک الاستاذ الجابرى هذا المسلک لوجد ان الحضارة الفارسية عامل اساسى فى تقدم العرب و ليس فى تخلفهم، و هذا ما تم اثباتها فى بحثنا و الله ولى التوفيق.

---

١ . طالب ماجستير فى فلسفة الاخلاق، جامعة المصطفى المفتوحة

٢ . استاذ مساعد فى جامعة المصطفى العالمية

مقدمة:

تعتبر الاشكالات الواردة فی کتاب الجابری (العقل الاخلاقی العربی) علی المکونات الاخلاقیة للتراث الفارسی من أهم الادعاءات الواجب الرد علیها، و بیان حقیقتها و حقیقة التراث الفارسی، و هل حقا ماجاء به الجابری له اساس علمی؟ و ما رأی التاریخ فی تلک الادعاءات؟

مکون الطاعة من منظور الجابری

السؤال الذی یطرحه الجابری: متی بدأ الموروث الفارسی یقدم نفسه داخل الثقافة العربیة الإسلامیة عبر الترجمة والتألیف کخطاب کلی وعالم فی القیم والأخلاق؟

کان ذلک فی أواخر العصر الأموی من خلال فن الخطابة وفن الرسائل (ویسمی الأخیرة بأدب الترسل أی من کتابة الرسائل) . فلقد کانت رسائل ملوک بنی أمیة خاصة منهم المتأخرین من أهم الرسائل التی استعملوها فی نشر القیم التی کانت تخدمهم، قیم الطاعة خاصة(الجابری، ۲۰۰۱: ج۴ ص ۱۳۳)

ویری الجابری أن الکتاب الأوائل فی الدولة الإسلامیة أمثال: " عبد الحمید الکاتب"و" ابن المقفع "، هم الذین ساهموا فی عملیة التأسیس للفکر الأخلاقی الإسلامیاعتمادا علی الموروث الفارسی، ویقدم لنا الجابری شواهد علی ذلک سواء من خلالدراسته لکثیر من نصوص أولئک الکتاب، أومن رجوعه إلی بعض النصوص التیوردت عند دارسین آخرین، ویخلص إلی أن أول درس فی الإسلام ارتبطت به"الأخلاق بالسیاسة " کان علی ید معاویة، وهی تلک الأخلاق ،التی کانت حاملة للسیفولم تحمل القلم، وکانت داعیة إلی "الجبر"، أما الدرس الثانی الذی یربط " الأخلاقبالسیاسة " فهو درس (الأدب) الذی کانت أهم مادة فیه هی " الطاعة "، والأدب کمایقول الجابری هو قلم یقوم مقام السیف، ومن ثم فإن الجبر والطاعة هما عنصرانأساسیان فی " أخلاق الهزیمة"، وتجسد ذلک ـ فی رأیه ـ فی الممارسات الأولی للخلفاء الامویین(زروخی، ۲۰۲۰، السنة۵۷: العدد۸الص۵)

إن هذه القیم الأخلاقیة حسب الجابری هی التی کانت تمارس فی الحکم الفارسی الکسروی، الذی یکون الحاکم فیه مخدوما من الجمیع وهو لا یخدم أحدا منهم ،ومن ثم

فهى قيم كسرويۀ كانت تعطى الأولويۀ للطاعۀ على المطيع، وفيه ينعدم الإنسان ،والمعنى الإنسانى الذى يرتبط به، ويغيب بذلک الفرد كقيمۀ فى ذاته، والقيمۀ هى للدولۀ، وتولد عن هذه الوضعيۀ، ثلاثۀ أنواع من الأخلاق: أخلاق السلطان التى تقوم على التفرد والتعالى، وأخلاق الخاصۀ وتقوم

على الخدمۀ والحذر، وأخلاق العامۀ، وتقوم على الطاعۀ والصبر، وعليه فلا سعادۀ للإنسان فى هذه الدنيا، بل سعادته فى الآخرۀ.(المصدر نفسه، ۲۰۰۱: الجزء ۴، ص 249ـــ ۲۵۳)

المصادر الحقيقيۀ للطاعۀ فى الاخلاق العربيۀ

۱) الطاعۀ فى القرآن:

قول الله تعالى: ((ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)) (النساء: ۵۹)

قال ابن كثير: ((والظاهر –والله أعلم– أن الآيۀ عامۀ فى جميع أولى الأمر من الأمراء والعلماء. كما يستفاد من الايۀ الكريمۀ أن الله سبحانه أوجب على المسلمين طاعۀ أولى الأمر منهم وهم الأئمۀ، والأمر بالطاعۀ دليل على وجوب نصب ولى الأمر. وعطف طاعۀ ولى الأمر على طاعۀ الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لأن أولى الأمر لا يفردون بالطاعۀ بل يطاعون فيما لا معصيۀ فيه لله ورسوله ومن باب أولى ما هو طاعۀ لله ورسوله.))

۲) الطاعۀ فى السنۀ النبويۀ:

عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((ومن مات وليس فى عنقه بيعۀ مات ميتۀ جاهليۀ))(مسلم، ۱۹۵۵ م: رقم الحديث: (۱۸۵۱))

حديث عبادۀ بن الصامت قال : ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعۀ فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرۀ علينا وأن لا ننازع الأمر أهله قال إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان)) (البخارى، ۱۴۲۲ه: رقم الحديث: (۷۰۵۵))

وحديث ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : ((من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية))(المصدر نفسه، ١٤٢٢: رقم الحديث: (٧٠٥٤))

٣) الطاعة السياسية (تحريم الخروج على الحاكم):

عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((من أراد بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الأثنين أبعد)) (الترمذى، ١٩٩٦م: رقم الحديث (٢١٦٥))

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ((من خرج عن الجماعة ومات فميتته جاهلية)) (أحمد، ١٩٩٥ م: رقم الحديث (٢٤٨٧))، لهذا فعقيدة أهل السنة تحذر من الفرقة والخلاف والخروج على ولاة الأمر لنهى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك وتوعده من فعل ذلك بالوعيد الشديد لأن الجماعة لا تستقيم إلا بإمام تجتمع عليه الكلمة والإمام لا يستقيم له الأمر إلا بالطاعة.

عن عرفجة الأشجعى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق كلمتكم فاقتلوه)) (المصدر نفسه ،١٩٩٥م : رقم الحديث (١٨٥٢)).

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله: ((من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن عصى الأمير فقد عصانى)) (المصدر نفسه ١٤٢٢ه: رقم الحديث (٢٩٥٧))

وأهل السنة يعتقدون أن وقوع الحكام والأمراء فى بعض المعاصى لا يبرر الخروج عليهم، فعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئا من معصية الله فليكره الذى يأتى من معصية الله ولا ينزع يدا من طاعة)) (المصدر نفسه ١٩٩٥م، رقم الحديث (١٨٥٥)).

وأهل السنة يعتقدون أن الطاعة واجبة للأمير التقى والأمير الفاجر لكن لا تجوز طاعتهم فى المعصية، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم: ((على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)) (المصدر نفسه ١٩٩٥م: رقم الحديث (١٨٣٩)).

٤) الانحراف عن مقصد الشارع:

أجمعوا العلماء على وجوب طاعة الحاكم المتغلب، وأن طاعته خيرٌ من الخروج عليه، لما فى ذلک من حقن الدماء، ولما فى الخروج عليه من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم، فإذا استتب له الأمر وتم له التمكين ـ وإن لم يستجمع شروط الإمامة ـ صحت إمامته ووجبت بيعته وطاعته فى المعروف، وحرمت منازعته ومعصيته؛ فأحكامه نافذةٌ، ولا يجوز الخروج عليه قولا واحدا؛ وقد حكى الإجماع على ذلک الحافظ ابن حجرٍ فى الفتح(ابن حجر، ١٣٨٠_١٣٩٠ه: الجزء ١٣ ص ٧) والنووى فى شرح مسلم (النووى ١٣٤٧ ه:ج١١، ص٢٢٩) و محمد بن عبد الوهاب فى الدرر السنية (علماء نجد،١٤١٧هـ ج ٧، ص ٢٣٩)

من خرج عن طاعة الحاكم الذى وقع الاجتماع عليه فارق الجماعة الذين اتفقوا على طاعة الإمام الذى انتظم به شملهم، واجتمعت به كلمتهم، فإن مات مات ميتة الجاهلية، فقد أخرج البخارى ومسلمٌ فى صحيحيهما عن ابن عباسٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :((من كره من أميره شيئا فليصبر؛ فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية))، وفى لفظٍ :((من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه؛ فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية))(متفق عليه) ؛ ذلک لأن أهل الجاهلية لم يكن لهم إمامٌ يجمعهم على دينٍ ويتألفهم على رأيٍ واحدٍ ـ كما ذكر الخطابى ـ بل كانوا طوائف شتى وفرقا مختلفين، آراؤهم متناقضةٌ، وأديانهم متباينةٌ؛ وذلک الذى دعا كثيرا منهم إلى عبادة الأصنام وطاعة الأزلام، رأيا فاسدا اعتقدوه فى أن عندها خيرا، وأنها تملک لهم نفعا أو تدفع عنهم ضرا (الخطابى، ١٣٩٩ه: ص ٥٧)

حقيقة الاخلاق فى الحضارة الفارسية/ الإيرانية.

إن دراسة الجانب الأخلاقى من أى حضارة لابد من دراسة عقيدتها الدينية، لأن الدين هو أساس المبادئ الخلقية، فهذه المبادئ تضبط سيرورة الحياة نحو التقدم والرقى والازدهار والتطور، وبما أننا امام أعظم حضارة ذات تاريخ عظيم غنى بأحداثه

ووقائعه الا و هى الحضارة الفارسية " إيران حاليا. فانه من الملزم تأريخ العقيدة الدينية لدا هذه الحضارة للتعرف على كيانها الأخلاقى.

تعد إيران موطن الفرس القدامى أرضا للقاء الحضارى بحكم موقعها الجغرافى الذى جعل أهلها يخضعون لتأثيرات فكرية متبادلة. (بارندر، ١٩٩٣م: ص ١١٥)

وقد توفر للفكر الفارسى الاحتكاك المباشر بفكر الحضارات الأخرى عبر قنوات عديدة كالتجارة والزراعة "وقد تميزت العقيدة الدينية الفلسفية لدى الفرس بوجود مستويين هما؛ العقيدة الشعبية التى كانت تسمح بعبادة العناصر الأربعة (النار متمثلة فى الشمس والقمر، الهواء والماء والتراب) كما كانت تقدس كل مظاهر الطبيعة، أما المستوى الثانى فتمثله عقيدة خاصة"(النشار، ١٩٩٧م: ص ١٠٧)، فقد كانت الديانات السائدة لدى الفرس هى عبادة قوى الطبيعة وتقديس كل مظاهرها المتمثلة فى النار والماء والهواء والتراب، ومن هذا فقد لعبت قوى الطبيعة تأثيرا كبيرا فى تشكيل عقيدة الفرس لدرجة أنها كانت تأمر بالتضحية ببنى الإنسان للتقرب بها إلى الآلهة ثم استبدلت بعد ذلك بالتضحية ببعض الحيوانات.

كشفت الآثار الملكية أن الملوك كانوا يؤمنون ببعض الآلهة الشعبية وسنركز على أهم المفكرين الذين كانوا يمثلون عقيدة الخاصة فى الفكر الفارسى وهو زرادشت. (اختلفت الروايات حول ميلاده منهم من قال أنه ولد فى القرن ١٠ق.م ومنهم من قال أنه ولد فى القرن ٦وقد قام جاكسون بدراسة دقيقة حوله فقرر أنه ولد فى النصف الثانى من القرن ٧ق م وتوفى فى القرن٦.

الزرادشتية :ظهر الدين الجديد وهى الزرادشتية وفى ظل هذه الديانة كان للفرس نظرات حول الأخلاق العملية، فالعقيدة الدينية احتوت على جوانب تعبدية وجانب تشريعى أخلاقى، فقدمت العديد من المسائل وناقشتها والقضايا موجودة فى كتاب" الزند افستا*. " (هو الكتاب المقدس لدى الفرس حيث جمع أصحاب زرادشت واتباعه اقواله وادعيته واصل عقيدته التى دعا إليها،) وهو الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين.

فتعاليم الزرادشية: أهمها تصوير زرادشت الإله" أهورامازدا "الذى وحد زرادشت بينه وبين الخير توحيدا جعلهما اسميين لمسمى واحد حيث أن" أهورامازدا "الاله الأوحد عند

زرادشت، وهو الذى لم يولد ولن يموت وهو القادر على كل شىء، ومن ثم فعلى الانسان أن يعبد خالقه ويطيعه باعتباره منبع كل الخير ولا يفكر فى الشر أبدا، وعلى هذا فإن الاله "أهريمان" الشيطان مصدر كل الشرور فى العالم، وهو المسؤول عن الامراض والموت. (غلاب، ١٩٣٨م: ص ١٨٦)

بناء على هذا فإن الخير والشر فى صراع دائم والصراع بينهما ليس للمجتمع فقط بل الفرد نفسه فعلى الانسان أن يختار بين فعل الخير والتوجه له بعقله وقلبه وأن يتبع تلك الديانات الزائفة ويتبع الشيطان فى كل تصرفاته، وإذا أراد الانسان الاستقرار الأبدى فعليه أن ينتصر على نوازع الشر.

ركز "زرادشت" فى تعاليمه على ضرورة توحيد قوى الخير لمحاربة قوى الشر وحسب "زرادشت" فإنه يؤمن بمبدأ الثواب والعقاب الأخروى وأن الصالحون المؤمنون لهم أجر حسن سيتقبلهم "أهورامازدا" ويتمتعون فيكنفه بالسعادة الأبدية، وفى إطار هذه الرؤية الدينية الفلسفية للإله وللمصير الإنسانى يؤمن "زرادشت" وأتباعه بضرورة أن يحيا الناس حياة اجتماعية معتدلة يتسق فيها القول مع الفعل والفكر مع العمل وعلى الناس أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات الىئة ويقهروا الجشع بالرضا والحسد بالإحسان. (المرجع نفسه، ١٩٩٧م: ص ١٠٧)

انطلاقا من هذا القول فإن "زرادشت" يؤمن بالحياة بعد الموت وأن الناس الخيرين لهم مصير حسن وأن الناس التى تحمل شرا سيكون لها مصير سىء وسيلقون نصيبهم من العذاب، ويظهر من خلال رسالته وهى رسالة خلقية يهتم بالدعوى إلى الفضيلة وترك الرذيلة وجعل الخير الغاية الأسمى والأرقى، والهدف الذى يجب أن يسعى إليه كل فرد ويجتهد فى تحقيقه، فربطت الزرادشتية بين فعل الخير ونقاء الروح.

نتيجة البحث:

تم بحمد الله الانتهاء من البحث بالخروج بعدة نتائج نذكر فى هذا المقال أهمها، و المرتبطة اساسا بما ذكر فى المقال:

– وقوع الجابرى فى خطأ منهجى و علمى عند محاولته التعرف على الحضارة الفارسية. فاعتمد فى التعريف بالفكر الفارسى على أدب ابن المقفع فى كليلة ودمنة والأدب الكبير

والأدب الصغير، وابن قتيبة فى عيون الأخبار، وابن عبد ربه فى العقد الفريد، ثم المـاوردى. اى النص الأدبى و هو المصدر الوحيد للتعرف على الفرس،و هى قاصرة عن ادراک حضارة عريقة كحضارة الفرس، اضافة الى مشروعية التشكيک فى هذه المصادر. و المعلوم ايضـا ان حضـارة قوم تأخذ من أفواههم، و اعتماد مناهج علمية لادراكها كالمنهج التاريخى.

– اختزال الجابرى التصوف فى هذه قيمة الفنـاء، و اختـزال الفكـر الفارسـى فـى قيمـة "الطاعة"، واختزال اليونانى فى "السعادة"، هو نوع مـن التعمـيم لا يخلـو مـن مجازفـة، وقـد يختلف المختلفون فى الأهمية النسبية لـ "الفناء" مثلا، وقـد يـرى آخـرون أن "الصـدق مـع النفس" هو القيمة الحاكمة فى فكر الصوفية.

مصادر البحث:

١. القران الكريم
٢. الجابرى، محمد عابد، العقل الأخلاقى العربى ٢٠٠١، نقد العقل العربى ۴، الطبعة الاولى، مركز دراسات الوحدة العربية
٣. زروخى إسماعيل، ٢٠٢٢، الثقافة العربية و صراع القيم، الحج و العمرة، مجلة تصدر عن وزارة الحج، السنة، ٥٧، العدد ٨
۴. مسلم بن الحجاج، ١٣٧۴ه_ ١٩٥٥م، صحيح مسلم، مطبعة عيسى البابى الحلبى و شركاه، القاهرة.
۵. البخارى محمد بن إسماعيل، ١۴٢٢ه، صحيح البخارى، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، بيروت.
۶. الترمذى محمد بن عيسى، ١٩٩۶م، الجامع الكبير، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى، بيروت.
٧. ابن حنبل احمد، ١۴١۶ه_١٩٩۵م، مسند الامام احمد بن حنبل، دارالحديث، الطبعة الأولى، القاهرة.
٨. ابن حجر احمد، فتح البارى بشرح البخارى، ١٣٨٠_١٣٩٠ه، المكتبة السلفية، الطبعة الأولى، مصر.
٩. النووى، ١٣۴٧ ه– ١٩٢٩م، المنهاج فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج (صحيح مسلم بشرح النووى)، المطبعة المصرية بالأزهر.
١٠. علماء نجد، ١۴١٧هـ/١٩٩۶م، الدرر السنية فى الأجوبة النجدية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الطبعة: السادسة،
١١. الخطابى حمد بن محمد، ١٣٩٩ه، العزلة، المطبعة السلفية، الطبعة الثانية.
١٢. جفرى بارندر، ١٩٩٣م، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
١٣. النشار مصطفى، ١٩٩٧م، المصادر الشرقية للفلسفة اليونانية، دار قباء، القاهرة، الطبعة الاولى.
١۴. غلاب محمد، ١٩٣٨م، الفلسفة الشرقية، مطبعة البيت الأخضر، القاهرة.